أم وكل علماء بني إسرائيل قبل نزول القرآن مهما كفر به بعضهم إذ نسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1]: بنبإ القرآن ورسوله الآتي، فقد كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة وينتظرون هذا الرسول، ويحسون أن زمانه قد أظلهم، وأيامه قد أطلتهم، يحدِّث بعضهم به بعضاً ويتحدثون على المشركين مستفتحين بذلك الفتح المبين!.

إنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ لا يثير قوميتهم، و﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ...﴾ يعلمه علماء بني إسرائيل، فقد تمت عليهم الحجة وطمت المحجة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿وَلَوْ﴾ هنا تحيل تنزيله على بعض الأعجمين، أعربياً ينزل على أعجمي ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2] واختلاف لغة النازل عن لغة الرسول عرقلة في الدعوة، ونقص في الدعاية، ومثار للنكاية، فعذر للمعنيين بالدعوة الرسالية.

أم أعجمياً على أعجمي؟ وهو نقص في اللغة حيث العربية قمة بين اللغات والوحي الأخير قمة بين سائر الوحي، فليكن بلسان عربي مبين.

ثم والعرب الألداء وهم مبتدأُ الدعوة ومنطلَقها ما كانوا ليؤمنوا به، فليكن عربياً منزلاً على عربي.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ عربياً أو أعجمياً ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ أصلاً أو ترجماناً ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ حيث النخوة العربية وقوميتها المتعرقة فيهم كانت تصدهم عن أن يؤمنوا به: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[١] [٢].

أجل و«لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم»[٣].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[٤] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ القويم القويم «نسلكه»: القرآن - إنفاذاً ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قطعاً لكافة الأعذار القومية والإقليمية واختلاف اللغة أماهيه، وسرداً لكافة البراهين القاطعة لوحي القرآن داخلية وخارجية، ولكنه ليس لينسلك في هذه القلوب المقلوبة فـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ تخيُّراً منهم رغم بارعة الحجج إلّا عند رؤية البأس: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

و﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد «نسلكه»: عدم الإيمان بالقرآن رغم ناصع البرهان ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ طبعاً عليها وختماً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥] [٦].

وهذا السلك هو من مخلفات السلك الأوّل المواجه بالتكذيب جزاءً

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.
(٢) راجع تفصيل البحث عن الآية إلى سورتها.
(٣) نور الثقلين ٤: ٦٥ في تفسير القمي في الآية قال الصادق عليه السلام: . . .
(٤) سورة الحجر، الآيات: ١٠-١٥.
(٥) سورة الصف، الآية: ٥.
(٦) فهنا مراجع لضمير الغائب في نسلكه: قرأنا وتكذيباً به وإيماناً به، والأولان صالحان معنوياً والأخير لا يصلح كما بيناه.

وفاقاً، ومن مخلفات السلك الثاني: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هنا في الرجعة أو قبلها، أم في البرزخ والأخرى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا... فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، فلا تعني ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ سلك الإيمان فإن اللَّه ليس ليحمل المكذبين على الإيمان، ولو حَمَل على إيمان فكيف ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ...﴾؟: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[2].

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ذلك العذاب الأليم ﴿بَغْتَةً﴾ دون إخبار ولا إمهال ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ الإيمان بالقرآن.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

إنظاراً لكي نؤمن به، ولات حين مناص، وقد فات زمن الخلاص.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾:

فلقد كانوا يستعجلون بعذاب الله الموعود للمكذبين تحدِّياً على النبيين، استهتاراً واغتراراً بما لهم من مُتَع الحياة الدنيا، وهم بذلك الاستعجال العضال يكدِّرون خاطر النبي الأقدس محمدٍ ﷺ.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾:

فقد «رئي النبي ﷺ كأنّه متحيّر فسألوه عن ذلك فقال: ولِمَ؟ ورأيت عدوي يلُون أمر أمتي من بعدي فنزلت: «أفرأيت...»»[3].

فلقد كان يغمُّه متاعهُم خوفةً على شرعته وأمته، إمرةً لمن لا يؤمن ولا

(١) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٣) الدر المنثور ٥: ٩٥ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال رئي...

يؤمَن[١] على المسلمين، فَطمْأَنَه ربُّهُ أن أيديهم قاصرة عن القضاء على شرعة الله، مهما كانت طائلة في متع الحياة الدنيا، فإن للحق دولة وللباطل جولة، وسوف تزول كلّ المُتَع عن الكفار في دولة القائم المهدي (عج)[٢].

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

﴿مُنذِرُونَ﴾ هنا تأشير إلى تواتر الإنذار بحق المهلَكين ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ لهم عن غفوتهم فطرياً وعقلياً، فإن مواد الهدى مرتكزة في الفِطر والعقول، ولا يعني بعثُ الرسول كأصل إلّا ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ لمن استُغفلوا عن دلائل الإيمان، إيقاظاً لأصول الهدى، ثم الفروع تتبناها واردة على قضايا الفِطَر والعقول.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في ذلك الإهلاك، و﴿كُنَّا﴾ هنا تستأصل أصل كينونة الظلم في الله سبحانه وتعالى، إذ لا دافع له إليه، ولو كان لم يظلم لأنه عدل حكيم، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، خوفة من القوي أن يغلبه، أو يساميه في القوة، وكلٌّ ذلك مسلوب عن ساحة قدسه سبحانه.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾:

---

(١) نور الثقلين ٤: ٦٥ في الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال أري رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه بني أمية يصعدون على منبره من بعده ويضلون الناس عن الصراط القهقرى، فأصبح كئيباً حزيناً قال: يا جبرئيل إني رأيت بني أمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقرى فقال: والذي بعثك بالحق نبياً إني ما اطلعت عليه فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يونسه بها قال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ...﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠٥] وأنزل عليه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ...﴾ [القَدر: ١] جعل الله ليلة القدر لنبيه صلى الله عليه وآله خيراً من ألف شهر ملك بني أمية.

(٢) تفسير البرهان ٣: ١٨٩ محمد بن العباس بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: خروج القائم عليه السلام ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠٧] قال: هم بنو أمية الذين متعوا في دنياهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ - ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عن الملإ الأعلى، رداً على المتطاولين على الذكر الحكيم أنه ﴿تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ﴾ ببرهان القرآن نفسه أنه ليس نازلاً إلّا بعلم الله، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾: الشياطين أن ينزلوا به، والابتغاء هو قبول البغي الطلب، فحتى لو طلب من الشياطين أن يتنزلوا بالقرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ قبولاً لذلك الطلب، فإن قلوبهم مقلوبة عن الهدى مملوءة من الردى، فأنى لهم أن يحملوا بتلك القلوب المظلمة وحي القرآن؟.

ثم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لو حاولوا في قبول ذلك التنزيل، أن يقبلوه، لـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ...﴾[1].

فإذا كانوا عن السمع معزولين فلا يسمعون مهما تسمعوا، فكيف يحملون الوحي - بقلوبهم المقلوبة - إلى قلوب النبيين؟.

وحتى لو ساغ لهم سمعه وحمله بقلوبهم فـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ سماحاً لذلك الحمل العظيم لأنهم غير مأمونين، إذ يخلطون الحق بباطل يهوونه، رغم خالص الوحي الذي يحوونه! إذ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حمله خالصاً وأداءً كما حمِّلوه قضية غلبة الشقوة عليهم لـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ للحق الناصح «لمعزولون» ومن الشروط الأصيلة للتنزل بالوحي سمَعَهُ في قرارة نفس الوسيط.

فلو تنزلت به الشياطين على ذلك النبي الأمين وهو يلعنهم ليل نهار، لكان أحرى أن تُنزِّل به على أوليائهم نقضاً لما يدعيه من وحي الرحمن، وكيف تصبح الشياطين بهذه القدرة الخارقة أرحم بعدوّهم من أوليائهم وأنعم، وهم يحاولون دائباً نقض الوحي ونقصه، تعبيداً لطرق الشيطنات.

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٨، ٩.

فـ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بارزة كالشمس في رابعة النهار إذ ما تنزلوا به على أوليائهم، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ ظاهرة كالنار على المنار، فلو لم يكونوا معزولين لأتوا بمثله وأحرى لأوليائهم، فلا يرد أن ذلك البرهان دور مصرح، حيث التصديق بـ«لا يستطيعون - و - معزولون» منوط بتصديق القرآن أنه وحي الرحمن، كما أن هذا التصديق منوط بـ«لا يستطيعون - و - معزولون»؟ حيث الانعزال وعدم الاستطاعة باهر واقعياً إذ لم يأتوا بمثله إلى أوليائهم مهما حاولوا واحتالوا! إذاً:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾:

ولماذا تدعو مع الله إلهاً آخر وهو حسبك الكافي ونعم الوكيل؟ وذلك النهي الصارم ليس صداً عن اقترافه إشراكاً بالله، واعترافه بغير الله، وإنما هو استئصال لآمال المشركين أن يركن إليهم ويَميل بُغيةَ إيمانهم، أم تقليلاً لثورة كفرهم.

ثم ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تنبيهة عالية للمؤمنين أن الداعي مع الله إلهاً آخر يعذَّب ولو كان هو الرسول العظيم، فضلاً عمن دونه من المؤمنين!

والقول إن التكليف لا يعني في نفيه وإثباته إلّا نفي النقص الحاصل وإثبات الكمال غير الحاصل، والرسول ﷺ بالغ ذروة الكمال فكيف ينهى عن الشرك ويؤمر بلزامات الإيمان والرسالة.

إنه مردود بأن العصمة لا تنافي الاختيار، ولا حد - كذلك - للكمال، وأن تكليف السلب والإيجاب لا يلازم اقتراف المنهي عنه وترك المأمور به، بل هو كأصلٍ إعلام بحكم الله، وإعلان للأمة بمرادات الله، وأن الرسول يحمله كرسول إلى الأمة بعد ما يحمله كمكلف من سائر المكلفين.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾:

وهنا انتقاله في النذارة من نفس الرسول ﷺ إلى عشيرته الأقربين،

ومن ثَمَّ إلى سواهم وإلى العالمين أجمعين، وهي طبيعة الحال في الدعوة الصالحة الرسالية، أن يبدأ الرسول بنفسه وذويه الأقارب، ثم الأغارب، حيث الأقربين هم الحملة الأولى للرسالة بعد الرسول، وفي تركهم إلى سواهم حجة على الرسول: كيف ترك ذويه واتجه إلى سواهم، ويكأن في دعوته غضاضة لا يقبلها ذووه! وهم أُعرف به وبدعوته فلو كان حقاً لما تركوه، وليعلم العشيرة الأقربون أنه لا تنفعهم قرابتهم منه شيئاً إلّا بالإيمان.

فلما نزلت هذه الآية بكى رسول الله ﷺ ثم جمع أهله فقال: يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ثم التفت إلى فاطمة فقال: يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنكم من الله غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»[1].

(١) الدر المنثور ٥: ٩٦ - أخرج ابن مردويه عن أنس قال لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] بكى... وفيه ٩٧ - اخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، دعاني رسول الله ﷺ فقال: يا علي! إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني مهما أبادئهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصممت عليها حتى جاء جبرئيل فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فاصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واجعل لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغ ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعته تناول النبي ﷺ بضعة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال: كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما نرى إلّا آثار أصابعهم والله إن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم، ثم قال اسق: القوم يا علي فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد النبي ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لقد سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي ﷺ فلما كان الغد قال: يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فعدلنا بمثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا حتى نهلوا ثم تكلم النبي ﷺ فقال =

وقد يؤشر ذلك الأمر الإمر أنه كان في بداية الدعوة ولما يتسع نطاقها، كما ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[١] فانتفض لتحقيق الأمر فنفض يده من أمرهم ووكلهم إلى الله، وبيّن لهم مراراً وتكراراً أن قرابتهم له لا تنفعهم ولا تغني عنهم من الله شيئاً، كيف ولا تنفعه رسالته لو لم يأتمر أمر ربه وهو في القمة المرموقة!.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾:

خفض الجناح هو أبلغ اللين والرفق والضعة والحنان، تصوراً عن الطائر إذ يخفض جناحه إذ يهبط، ويخفضه حين يحتضن أفراخه، وكذلك يؤمر الرسول حين يهبط عن سماء الوحي برسالة الأرض والسماء، أن يخفض جناح الرحمة لأفراخه المؤمنين به، من أقارب وأغارب، دونما مماراة أو مماشاة مع المكذبين الأقارب، أم طرد للمؤمنين الأغارب، أم ترجيحاً بين من آمن للأقارب، وإنما ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وكما الطائر لا يطير عن أفراخه ولا يغيب في الحالات الحرجة، كذلك أنت يا أيها الطائر القدسي الرسالي دُم على أفراخك المؤمنين: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾[٢] وقد كان خافض الجناح لهم على ما كان من بعضهم من جفاوة، فلا يواجههم - إذاً - إلّا بكل حنان وحفاوة، بل وبالنسبة لغير المؤمنين أيضاً علّهم يؤمنون.

= يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أحداً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على أمري هذا؟ فقلت: - وأنا أحدثهم سناً - أنا فقام القوم يضحكون.

أقول وقد أخرج القصة باختلافات يسيرة مع الحفاظ على أصلها جم غفير من المحدثين (راجع الدر المنثور وجامع البيان ونور الثقلين والبرهان وبحار الأنوار).

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾:

وترى ضمير الجمع في ﴿عَصَوْكَ﴾ راجع إلى الكفار فقط؟ وهم أبعد مرجعاً! والبراءة لا تخص عمل الكافر، بل والأصل فيها كفره في قلبه حيث يخلِّف تخلفه في عمله! أم هو راجع إلى ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قربها مرجعاً؟ وكيف يواجه الرسول المؤمن الفاسق بتلك البراءَة ومن شروطات النهي عن المنكر لين الكلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

علّه راجع إليهما، والبراءة - إذاً - يخص ما يعملون، إذ لا براءَة من المؤمن نفسه إن كان فاسقاً.

أم أن «ما تعملون» هي نفسه «إن عصوك» والعصيان يعم الجوانح إلى الجوارح، بل وعيان الجوارح هو من مخلَّفات عصيان الجوانح، إن كفراً فأعمال كافرة، وإن فسقاً ففاسقة، فـ ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ في الكافر يعم قلبه وقالبه، وفي المؤمن الفاسق عمله إلى تخلفه في قلبه أو نيته.

ثم ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ في مواجهة الكافر تختلف عنها أمام المؤمن، والبراءة من العصيان هي قضية الرسالة، والمجاهرة بها هي من أخريات المطاف في النهي عن المنكر، وقد تلمح الآيات التالية أن المحور هنا في «إن عصوك» هم الكفار وعلى هامشهم عصاة المؤمنين.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾:

و﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تلحيقة مكرورة طوال السورة في عرض الإيمان والكفر، فـ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أمام الكافرين و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أمام المؤمنين، فـ «توكل» في كلّ المجالات الرسالية ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ولا يهمك بعدُ ماذا يحصل بعد أن تُطبِّق أمر الله في دعوتك فإنه: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في صلاتك وفي

الدعوة الرسالية[١]. ﴿يَرَىٰكَ﴾ بعين العلم والقدرة والعناية فلا تفلت عن رؤيته، إذ لا يلتفت عن رعايتك.

﴿يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ منذ كنت في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة، وحتى رسالتك وإلى ارتحالك إلى رحمة ربك[٢] فهل ترى أن الله يتغافل عمن تكون حياته قياماً لدينه، وتقلُبه فيها سجوداً ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

وقد يعني ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ إلى ما عناه، أنه كان يرى في صلاته من خلفه كما يرى من بين يديه، تقلب العلم والرؤية للساجدين وهو في الساجدين، وكما يروى عنه ﷺ: «لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثم تلا هذه الآية»[٣].

---

(١) نور الثقلين ٤: ٦٩ القمي حدثني محمد بن الوليد عن محمد بن الفرات عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ﴾ [الشُعَرَاء: ٢١٨] تقوم «في النبوة» ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشُعَرَاء: ٢١٩] قال: في أصلاب النبيين.

(٢) المصدر. روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ وفي الدر المنثور ٥: ٩٨ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ فقلت: بأبي أنت وأمي إني كنت وآدم في الجنة؟
فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال: إني كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح وقذفت في النار في صلب أبي إبراهيم لم يلتق أبواي قط على سفاح لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما قد أخذ الله بالنبوة ميثاقي وبالإسلام هداني وبين التوراة والإنجيل ذكري وبين كلّ شيء في شرق الأرض وغربها وعلمني كتابه ورقى بي في سمائه وشق لي من أسمائه فذّ والعرش محمود وأنا محمد ووعدني أن يحبوني بالحوض وأعطاني الكوثر وأنا أوّل شافع وأوّل مشفع ثم أخرجني في خير قرون أمتي وأمتي الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ورواه في البرهان ٣: ١٩٢ عن ابن بابويه عن جابر قال سئل رسول الله ﷺ.. مثله وروى بطرق كثيرة. في تفسير البرهان ٣: ١٩٢ القمي قال حدثني محمد بن الوليد ممن محمد ابن الفرات عن أبي جعفر عليه السلام قال: الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين قال: في أصلاب النبيين.

(٣) المصدر - أخرج مالك وسعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة قال=